المحاضرة الثالثة

النقد الأدبي في العصر الأموي

شهد العصر الأموي حركة نقدية نامية تجلت ملامحها في مجالس النقد التي كان يعقدها الخلفاء والأعيان مع الشعراء، وفي ما كان يدلي به علماء اللغة وأفراد من عامة الناس من آراء وأحكام في عدد من شعراء الجاهلية والإسلام.

وقد ظل هذا النقد قائما على الطبع والسليقة لا على التحليل العميق والتعليل المنطقي؛ غير أنه "يتميز عن سابقه بأنه عباراته قد دقّت وأن الناقد يحس إحساسا متميزا جليا بما للشعر من صفات، ويعلل ما استطاع تعليلا واضحا لا غموض فيه."

ولأن صياغة الشعر ظلت –مثل نقده- إلى ذلك العصر تقوم في جملتها على الطبع والارتجال، فإن نقد تلك الحقبة كان أكثره يتناول المعاني والأوصاف دون الصياغة والبنية اللغوية. ويمكن إجمال مسائله فيما يأتي:

1.نقد المعاني والأوصاف

أكثر ما يصدر هذا النقد عن الخلفاء وأعيان المجتمع؛ فهم يتلقون الأشعار بفطرتهم ويحكمون لها أو عليها بحسب ما وصل إلى نفوسهم من تأثير معانيها ومدى مطابقتها لمعاييرهم الاجتماعية التي امتزج فيها الشعور الإسلامي بالحس الحضري الجديد الذي أخذ يحتل مكانه في بيئة الحجاز المنعّمة المترفة. ويبدو أكثر ملاحظاتهم ذا دلالة على حساسية في الذوق وإدراكٍ لدقائق الإصابة في المعنى وأسرار الإجادة في بلوغ الغرض النفسي للشعر.

من شواهد هذا النقد ما قاله عبد الملك بن مروان لكُثيِّر بعدما أنشده في حبيبته عزّة:

هَمَمْتَ وهمّتْ ثم هابت وهِبتُها حياءً، ومثلي بالحياء خليقُ

"أما والله لولا بيتٌ أنشدتَنيه لحرمتُك جائزتك ... لأنك شركتَها معك في الهيبة ثم استأثرت بالحياء دونها."

وما قاله أيضا حين امتدحه ابن قيس الرقيّات بقوله:

يعتدل التاجُ فوق مَفْرِقِه على جبينٍ كأنه الذهبُ

"يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجَم، وتقول في مصعب:

إنما مصعبُ شهابٌ من الله تجلت عن وجهه الظلماءُ

مُلكُهُ مُلكُ رحمةٍ ليس فيه جبروتٌ ولا به كبرياءُ

فنقده الأول يتجه إلى المعنى والموقف إذ رأى أن كثيّرا أخطأ الموقف أو التصرف –ولو على مستوى التعبير الشعري- حين لم يذكر حبيبته بصفة الحياء وهي الأجدر بها بصفتها امرأة. ونقده الثاني يتجه إلى الوصف والصورة، ويتجلى فيه أثر الإسلام في ذوقه، حيث لم يُرضِهِ أن يوصَف وصفا ماديا كما يوصف العجم، وآثرَ أن تُضفى على الصورة ظلالٌ روحية دينية خلقية كما في صورة مصعب.

وقد عبّر صراحة عن ضيقه بالأوصاف البدوية المادية وإيثاره الأوصاف الروحية فقال:

"يا معشر الشعراء، تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر، ومرة بالجبل الأوعر، ومرة بالبحر الأجاج. ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خُرَيم في بني هاشم:

نهاركُمُ مكابدةٌ وصومُ وليلُكُمُ صلاةٌ واقتِراءُ

أأجعلكمْ وأقواما سواءً وبينكمُ وبينهم الهواءُ

وحول المعاني الغزلية نشطت حركة نقدية واسعة شارك فيها الأمراء والشعراء والأعيان والفقهاء، وجعلت كلها تفضّل معنى على آخر، أو تستجيد معنى وتستهجن آخر، حسب معيار ذوقي ذاتي، نفسي أو اجتماعي في النظر إلى جودة المعاني وشرفها وبلوغها غاية المقصد.

فقد عاب عبد الملك بن مروان على نُصَيبٍ قولَه:

أهيمُ بِدَعْدٍ ما حييتُ، فإن أمُتْ أُوَكِّلْ بِدعدٍ من يهيم بها بعدي

فلمّا سئل: فماذا كنت تقول يا أمير المؤمنين، قال: كنت أقول:

أهيمُ بِدَعْدٍ ما حييتُ، فإن أمُتْ فلا صلُحتْ دَعْدٌ لذي خلّةٍ بعدي

وهو نقد خالصٌ للمعنى يعتمد على معيار اعتباري نفسي يرى أرفع الحب وأحسن الهيام ما كان فيه التعلق بالغا حد الإخلاص الكامل والتجرد الخالص. ولمّا كان في بيت نصيب ما يدل على ضعف في درجة التعلق لقبوله أن يتصور حبيبته بعد موته محبوبة لرجل غيره، كان ذلك دليلا على ضعف الموقف والمعنى.

وحول هذا المعنى دار حديث النقد بين عدد من الشعراء، استجاد فيه كُثيِّر قول الأحوص:

وما كنتُ زوّارا ولكنَّ ذا الهوى إذا لم يزر لا بد أن سيزورُ

وقول نُصَيب:

بزينبَ ألمِمْ قبلَ أن يرحلَ الركْبُ وقل: إنْ تملّينا فما ملّكِ القلبُ

واستقبح قول عمر بن أبي ربيعة:

ثم اسبطرّت تشتدُّ في أثري تسألُ أهل الطوافِ عن عُمَرِ

فعلّق ساخرا: "إنك تُشبِّبُ بالمرأة ثم تدعُها وتشبّب بنفسك... والله لو وصفتَ بها هِرَّةَ أهلك لكان كثيرا."

وما كان كُثيّر –ومعه الذوق الحضري العام-يستقبح أن تُصوَّر المرأة هي الملاحِقة الساعية في أثر الرجل وحسب، بل كان يستقبح أيضا أن يعبّر الشاعر المحب عن صبره وتجلّده أو كبريائه وعزة نفسه؛ لذلك عاب على الأحوص قوله:

فإن تصِلي أصِلْكِ وإن تبيني بهجرِكِ بعد وصلك لا أبالي

وقال: "أما والله لو كنتَ حرا لباليت." فما أظهره الأحوص من عدم المبالاة يُعدُّ مخالفة لهذا الذوق الذي امتزجت فيه سماحة الإسلام وعنايته بالمرأة، بالترف الحضري وما أسبغه على المشاعر من رقة وليونة وكَلَفٍ بشؤون الغزل والهيام. هذا الذوق الذي يتجلى أكثر في الموقف الأنثوي لعزّة حبيبة كُثيّر إذ كشفت عن معيارها بكل وضوح حين فضّلت شعر الأحوص على شعر كثيّر قائلة: "لأني رأيت الأحوص ألْيَنَ جانبا في شعره منك في شعرك، وأضرعَ خدّا للنساء."

2. نقد الصياغة

لم تحفظ لنا الروايات النقدية سوى قلة نادرة من الشواهد التي يتجه فيها النقد إلى الصياغة والتركيب. وهذه القلة تُنسب لبعض الشعراء ولعلماء اللغة. فمن نقد الشعراء ما رواه المبرّد: "أن الكُمَيت بن زيد أنشد نُصَيبا فاستمع فكان فيما أنشده:

وقد رأينا بها حُورا منعَّمةً بيضا تكاملَ فيها الدَلُّ والشَّنَبُ

فقال نُصيب: تباعدتَ في قولك: "تكامل فيها الدل والشنب"؛ وذلك أنه جمع بين صفتين غير متجانستين أولاهما معنوية والأخرى حسية. وقد ذكر المبرّدُ أن ما عابَه نُصيبٌ قبيحٌ جدا، لأن الكلام لم يجرِ على نظم، ولا وقعَ إلى جانب الكلمة ما يشاكلها.

ومن نقد علماء اللغة ما رواه ابن سلّام من "أن عبد الله بن إسحاق الحضرمي –وكان من علماء النحو- سمع الفرزدق يُنشد في قصيدة مدح بها يزيد بن عبد الملك"

مُستقبِلين شمال الشام تضرِبُهم بحاصبٍ كنديفِ القطنِ منثورِ

على عمائمنا يلقي وأرحُلِنا على زواحفَ تُزجى مُخُّها ريرِ

فقال له: أسأتَ، إنما هي "ريرُ" بالرفع، وكذلك قياس النحو في هذا الموضع. وكذلك عاب عليه قوله:

وعضَّ زمانٌ يا ابنَ مروانَ لم يدَعْ من المالِ إلا مسْحَتاً أو مُجلّفُ

فسأله: على أي شيءٍ رفعتَ مجلَّفا؟ فقال: على ما يسوؤك"

ومن هذا النقد أيضا إشارة النقاد إلى التعقيد اللفظي عند ذي الرُمّة في مثل قوله:

كأنَّ أصواتَ من إيغالهنَّ بنا أواخر العيس أصوات الفراريجِ

والسليم نحويا أن يقول: كأن أصوات أواخر العيس أصواتُ الفراريج من إيغالهنّ بنا.

"ولا شك أن هذا النقد النحوي واللغوي قد ساعد على تنقية اللغة الفصحى من الفساد الذي دخل إليها بسبب غفلة الشعراء وتأثرهم بما حولهم من لهجات عامية أو لهجات قبلية. ورغم أن هذا النقد قد اهتم بالجزئيات فإنه كان يؤدي إلى سلامة بناء القصيدة وصفاء الصورة الأدبية."

وقريبٌ من هذا النقد ما علّق به ابن أبي عتيق على قول ابن قيس الرقيات:

تقدّتْ بيَ الشهباءُ نحو ابن جعفرٍ سواءٌ عليها ليلُها ونهارُها

فقد ناداه بـ"فارس العمياء"؛ فلمّا سأله عن هذا الاسم الحادث أجاب:

-أنت سمّيتَ نفسَك إذ تقول: "سواء عليها ليلها ونهارها"؛ فما يستوي الليل والنهار إلا على عمياء. قال: إنما عنيتُ التعب. قال: فبيتُك هذا يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه.

فهذا نقدٌ للصياغة التي تحولُ دون وضوح المعنى، وفيه تضييقٌ على الشاعر وتكليف له بما ليس من ضرورة الشعر، بل بما هو مخالف لطبيعته في التعبير عن المعنى بغير الأسلوب المباشر الكامل الوضوح.

3.الوقوف على خصائص الشعراء

من ألوان النقد التي برزت في العصر الأموي فخطت به خطوة في طريق النمو والاتساع الوقوف على خصائص كبار الشعراء في الجاهلية والإسلام، من حيث المعاني والصياغة والأغراض الشعرية التي يجيدون فيها. وهذه جملةٌ من آراء الشعراء واللغويين في طائفة من الشعراء:

كان جرير يرى طَرَفة بن العبد أشعرَ الناس. ويرى شعر ابني أبي سلمى (زهير وابنه كعب) بالنيِّر. ويقول عن ذي الرُّمّة إنه "قَدَرَ من ظريف الشعر وغريبه وحسنه على ما يقدر عليه أحد". ويقول: "الفرزدق نبعة الشعر، والأخطل يجيد مدح الملوك ويصيب صفة الخمر". ويقول : "إني لمدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعود: نسبتُ فأطربت، وهجوتُ فأرديت، ومدحتُ فسنّيتُ، وأرملتُ فأغزرت، ورَجزتُ فأبحرت؛ فأنا قلتُ ضروب الشعر كلها، وكل واحد منهم قال نوعا منها."

ولعل جريرا لم يبالغ كثيرا؛ فقد شهد له رجل من بني سلامة حين قال: "بيوت الشعر أربعة: فخر ومديح ونسيب وهجاء، وفي كلها غلب جرير." وقال العقيلي: "كان جرير يُحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق."

وقد اعترف أكثر من شاعر لعمر بن أبي ربيعة بتفوقه في النسيب وأسبقيته في معانيه واقتداره في مخاطبة النساء، فقال جميل: "إلا إن النسيب أُخذ من هذا". وقال بعد سماعه أبياتا له: "يا ابن الخطاب: لا أقول واللهِ مثل هذا سجيسَ الليالي. واللهِ ما يخاطب النساءَ مخاطبتَك أحد." وقال نُصَيب: "عمر ابن أبي ربيعة أوصفُنا لربّات الحجال."

والأخطل يقول في شعر كُثيِّر حين سأله عبد الملك بن مروان رأيه: "أرى شعرا حجازيا مقرورا لو ضغطه برد الشام لاضمحلّ"، إشارة إلى برود في العاطفة تكشف عنه الصياغة والمعنى.

ومن جملة ما حدده اللغويون من خصائص الشعراء قولهم: جرير أشعرُ عامةً والفرزدق أشعرُ خاصّة. والبعيثُ شاعرٌ فاخرُ اللفظ. والقطاميّ شاعر فحل رقيق الحواشي حلو الشعر. والأخطل أبعد منه ذكرا وأمتن شعرا. وكُثيّر أشعر أهل الإسلام ولكنه منقوص الحظ في العراق.

ورغم ما يكتنف هذه الأحكام من العمومية والغموض فإنها تكشف عن تطور في ممارسة النقد من الحكم على الأجزاء من ألفاظ وعبارات وأبيات، إلى تلمّس الخصائص العامة للشعراء، والحكم على شاعريتهم ومذاهبهم في الشعر وفقا لذلك.